إننا نلحظ فى أحوال الأمم المكذبة أنها لا تبحث قضايا الألوهية والبعث والاستقامة والأدب بحثا موضوعيا تُعمل فيه ما وهب لها من عقل، وتمنحه ما يستحق من عناية، إنها تهتم بشىء آخر ينبغى أن نكشفه! فإن جرثومته لاتزال تفسد الأمم حتى عصرنا الحاضر..

ماذا طلب نوح من قومه؟ قال لهم: ﴿ **ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[1].

ثم وصف لهم اللهَ الذى يدعوهم إلى عبادته ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا. والله أنبتكم من الأرض نباتا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ...** ﴾[2] إلخ.

لكن قوم نوح لم يفكروا فى هذا الإله وعظمته وحقوقه! بل فكروا فى أنفسهم ومكانتهم ومالهم وجاههم، وحسبوا أن الدعوة الجديدة ستجعل نوحا فوقهم درجة، وتجعل مَنْ سبق إلى اتباعه أعلى قدرا!

والغبىُّ يرى فى الذكاء تحدِّيا له، ويخاصم كل شىء يتوجس منه على وضعه!

وتأمل فى ردِّ قوم نوح عليه ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾[3] إن الردّ كله يقوم على نفى ما قد يتميز به نوح على غيره، وعلى تحقير الذين يصدقونه واعتبارهم أراذل المجتمع، وعلى الطعن فى إيمانهم وإخلاصهم، فليسوا أكثر من متمردين على الأوضاع التى ينبغى أن تبقى..

والغريب أن هذه التهم تتكرر على اختلاف الأزمنة والأمكنة، وقد واجه مثلها النبىُّ الخاتم عليه الصلاة والسلام، ولا تزال تواجه الدعاة والمصلحين إلى الآن..

وفى البشر ميل عجيب إلى ما يسمَّى بنظام الطبقات، وإلى تحقير فئات من الناس للونهم أو لفقرهم! وقد طلب قوم نوح منه طرد هؤلاء الأراذل عنه؛ لأنهم يستنكفون الاجتماع معهم، فأجاب ﴿ **ما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربّهم ولكنى أراكم قوما تجهلون * ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون** ﴾[4]؟

---

(١) الشعراء: ١٠٦ ـ ١٠٨.
(٢) نوح: ١٥ ـ ١٨.
(٣) هود: ٢٧.
(٤) هود: ٢٩ ـ ٣٠.